المحاضرة 05 :

الحِجَاج وتقنيات التأثير

تمهيد:

كَثُر الحديث عن الحِجَاج و عن نجاعته في مقاربة مختلف الخطابات العلميّة والإنسانيّة والثقافيّة، كما تناولته بالتحليل والدّرس والمعالجة دراسات وأبحاث وكتب ومقالات يَشُق حصرها، إذ أصبح في أعقاب ذلك موضوعًا لافتا للانتباه بسبب حضوره الكلي أو الجزئي في مجموعة من الخطابات، سواء كانت فلسفية أو قضائية أم أدبية أم سياسية وغيرها، ودلالة ذلك أن عصرنا هو عصر الحِجَاج والجدال والإقناع والتأثير والحوار لاسِيَّمَا مع تطور الحاصل في وسائل الإعلام.

وما فتئت الحاجة الماسة تزداد إليه بعد أن كثر في عصرنا الخِلاف والإكراه والعنف والتطويع والتعصب ، لأنّ الحِجَاج سبيل العقل والمنطق، ومسلك رفع الخِلاف عن طريق الحوار والجدال الحسن، بناء على ذلك، أضحى الحِجَاج أداة مناقشة الأفكار مهما كانت طبيعتها ، و آلية ذات بالٍ في محاورة الأطراف المشاركة في عملية التواصل، إذ الغرض من كل ذلك هو التأثير أو الاقناع أو الحوار، أو مناقشة الآراء المعروضة بالتشكيك في صحتها أو معارضتها أو تأييدها أو اقتراح أفكار بديلة قصد الظفر بجواب مقنع للأسئلة التي هي محل نقاشٍ بين المفكرين والعلماء ، ويكون ذلك بتسخير تقنياتٍ حجاجيةٍ تروم التأثير في المتلقي أو في نظرته إلى تلك القضية مما يفضي بنا إلى طرح الإشكال التالي: ما تقنيات الحِجَاج وما الوسائل التي عليها قِوامه؟

1. تقنيات الحجاج:

تقتضى العملية الحِجَاجِيّة بغية ترسيخ الخطاب في جمهور المتلقين و النفاذ إليهم جُملة من الآليات كما تستدعي جملة من الوسائط الإقناعية كذلك، بما أن التقنيات الحِجَاجِيّة كيانات مجردة يشغلُها المُحَاجِج بعلمه من الحقائق حتى تصبح فاعلة في الخطاب حيت توجِّه حركته الحِجَاجِيّة ، والخطاب في الحِجَاج يعتمد على تقنيات مخصوصة تختص بمجال من المجالات دون غيرها، إذ تنقسم إلى فئتين وفق تصوّر بيرلمان وتيتكا، منها ما يخص تقنيات الحِجَاج اللغوية على هذا النحو:

أ. **طرائق الوصل:**

يُراد بها تلك الطرائق التي تقرب بين العناصر المتباينة المتباعدة في الأصل، وتقوم بتوحيدها بُغية تنظيمها؛ أي إبرازها في هيكل أو بِنيَّة واضحة بغية تقوّيم أحد هذه العناصر بواسطة الآخر تقويما ايجابيا أو سلبيا [1].

ب. **طرائق الفصل:**

1 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.لبنان، الطبعة 1، 2004، ص: 477. بتصرف

هي تلك الطرائق القائمة على الفصل بين المفاهيم والمعطيات مما يلزم منه توليد حقائق جديدة ينشئها الحِجَاج بمفعول ما أجراه على تلك المعطيات وما مارسه على تلك القيّم من فصل تتحكم مقولتها الظاهرة والحقيقة، "وهي التي تكون غايتها توزيع العناصر التي تُعدّ كلاًّ واحدًا أو على الأقل مجموعة متحدة ضمن بعض الأنظمة الفكرية أو فصلها أو تفكيكها"[1].

وبناء على ما تقدم، يمكن رصد التقنيات الحِجَاجِيّة كما يلي:

1 ـ الأدوات (الآليات) اللغوية : وتشمل هذه الأدوات على كل الوسائل اللّغوية التي من شأنها تحقيق الإقناع كألفاظ التعليل والأفعال اللغوية، والوصف، حيث تسهم هذه الأدوات بشكل فعال في العملية الحِجَاجِيّة من خلال توجيه وربط الحُجج بعضها ببعض وتأكيدها، وهذا ما يجعل الخطاب أقوى من الناحية الإقناعية، وتعُدّ ألفاظ التعليل من الأدوات اللغوية التي يتوسل بها المتكلم في تركيب خطابه الحِجَاجِي وبناء حُجَجه فيه، حيث تُساق لتبرير الفعل أو القضية المطروحة وتعليليها، فاستخدامها يتوقف على حاجة المتكلم إلى التعليل والتأثير، وتبعا لذلك تسهم في جعل الخطاب أكثر إقناعا لأنّ الخطاب يكون مُدعما بالحجج المؤيّدة والمعللة للنتائج المحصل عليها، وبهذا يكون لهذه الألفاظ دور هام في العملية الإقناعية"[2].

2. الآليات البلاغية:

يندرج في هذا الجزء كل الأدوات والأساليب البلاغية التي من شأنها أن تدفع بمتلقى الخطاب إلى الإقناع وذلك لكون هذه الأدوات البلاغية في حدّ ذاتها حُجج تزيد من درجة الإذعان في صلب الخطاب من خلال ما توفره من قيمة جمالية وطاقة إقناعية قادرة على التأثير في المتلقي، فالصور البلاغية تنهض بدور حجاجي لا يستهان به في العملية الإقناعية، وقد سبق وأن أشرنا إلى علاقة الحِجَاج بالبلاغة، فالحجاج يتوسل بكل الأدوات والأساليب البلاغية بوصفها وسائل حجاجية قصد تحقيق أهدافه وغاياته الإقناعية، ومن تلك الآليات البلاغية نذكر الاستعارة والتشبيه والكناية والتمثيل والسجع، والطباق، والتكرار المحمول على التوكيد، وتوظيف الأساليب الإنشائية كالاستفهام والشرط والقصر وغيرها.

يحسن أن نشير في هذا الموضع إلى أن الأدوات البلاغية تنهض بدور مهم في الإقناع، إذ إنّها تعدّ من الوسائل الحِجَاجِيّة التي لها طاقة حجاجية وقوة إقناعية كبيرة في إقناع المتلقي بأسلوب بلاغي مما يساعد المتكلم في تحريك وجدان المتلقي واستمالته.

3. الآليات شبه المنطقية:

إنّ الآليات شبه المنطقية لها علاقة وطيدة بقضية السُلم الحِجَاجِي ومراتبه، وقضية الروابط الحِجَاجِيّة من قبيل : لكن، حتى، فضلا، عن، ليس، كذا، فحسب، يضاف إليها أدوات التوكيد ودرجات التوكيد والإحصاءات، وبعض الآليات التي منها الصيغ الصرفية مثل التعدية بأفعال التفضيل والقياس وصيغ المبالغة"[3].

---

1 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية ، ص 477.

2 - المرجع نفسه، ص481-482.

3 - المرجع نفسه، ص 477.

4الوسائل الأصولية والفلسفية:

.1.4. القياس(analogie): أطلق طه عبد الرحمان في كتابه في أصول الحوار وتجديد الكلام مصطلح القياس وأصطلح عليه بمصطلح "الاستدلال الخطابي" فالقياس "فعالية استدلالية خطابية"[1]. ووسيلة حجاجية يعتمد عليها المُحَاجِج بغية تدعيم الطاقة الحِجَاجِيّة لخاطبه، ليصبح أكثر نجاعة وإقناعاً. وعليه "فإنّ الاستدلال القياسي يحتوي على الآليات التي يتوالد بها كل خطاب طبيعي وتتكاثر بها أجزاؤه، وتتماسك فيما بينها"[2].

تكمن فعالية الاستدلال القياسي في ربط أجزاء الخطاب وفي إعطاء الخطاب حقه من الإقناع حيث "يستمد مسلماته، وفيه يبني عملياته وبه يربط قواعد[...] ذلك اختص بصفات تداولية منطقية متفردة تجعل الآليات القياسية لا ينحصر عملها في قطاع فكري معين، وإنّما يشمل كل خطاب طبيعي أيّا كانت لغته، وأيّا كان مجاله وأيّا كان مستواه"[3]. يترتب على ذلك تنوع الأقيسة تبعاً لتنوع النصوص الحجاجية.

وقد تُذكر جميع أركان القياس من مقدمة كبرى وصغرى ونتيجة، كما قد تُطوى بعض أركانه تعويلا على معرفة المعروض عليه بها، فغاية القياس هو تتبع طريقة ربط مكونات الحِجَاج من المقدمة إلى النتيجة.

2.4. التمثيل: وفيه تعقد "الصلة بين صورتين ليتمكن المرسل من الاحتجاج، وبيان الحُجَّة"[4] إذ يتقاطع القياس مع التشبيه في العناصر، وذلك في كون القياس "إظهار لوجود شبه بين الشيئين"[5]. فالتشبيه: هوالبِنيَّة الأساسية التي عليها قِوام الاستعارة، فقد كان ابن الأثير يُعد الاستعارة جزءا منه والتشبيه "هو الجمع بين الشيئين، أو بين الأشياء بمعنى ما بواسطة كاف ونحوها"[6].

5.الوسائل البلاغية:

تكمن ميّزة الكلام بين اثنين في التخاطب مع وجود نية التأثير بصور مختلفة، "واللغات تتفاضل في حقيقتها ووجودها بالبيان، وهو تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقوى إلى القَبول وأدعى إلى التأثير، في صورتها وأجراس كلامها بعذوبة النطق، وسهولة اللفظ والإلقاء، والخفة على السمع وإن للغة العربية من هذه المميزات، الميزان الراجح، والجواد القارح، يعرض ذلك من أخذها بحق، وجرى فيها على عرق، فكان من مفرداتها على علم وضرب في أساليبها بسهم"

1 - طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد الكلام، المرجع السابق،، ص98.
2 - المرجع نفسه، ص115.
3 - المرجع نفسه، ص140.
4 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتجيات الخطاب، المرجع السابق، ص497.
5 - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد الكلام، المرجع السابق، ص99.
6 - يحيي بن حمزة العلوي ، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب، خديوية، القاهرة، ط1، 1914، ص263.

ومقصد هذا الكلام أن الحاذق في استعمال اللغة بفنونها، يُبلغ أغراضه للسامع من خلال تسخير ما تتيحه اللغة من تشبيه واستعارة وكناية و مجاز وعذوبة اللفظ قصد الظفر بقَبول السامع .

نخلص في ختام هذا المحاضرة، إلى أن الحِجَاج يصطبغ تبعاً لحقل تقنياته ووسائله، فيساهم بذلك في التأثير في المتلقي وإقناعه، وذلك بتسخير هذه الحُجج والبراهين التي يشفع بها العارض(المُحاجج) الأطروحة ويسندها قصد التأثير في المتلقي.